الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945 قالمة

كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب عربي

الأستاذة: إيمان حراث

المستوى: سنة ثالثة ليسانس

تخصص: دراسات أدبية

الأفواج: (1+2+3)

المحاضرة الثامنة:

الشخصية في الرواية المغاربية

أولا: مفهوم الشخصية الروائية:

لقد حظيت الشخصية الروائية بأهمية قصوى لدى النقاد والمهتمين بالدراسات السردية والحكائية فجعلوا البحث في مفهومها محور انشغالهم لأنها هي التي تنتج الأحداث بتفاعلها مع الواقع أو الطبيعة أو تصارعها معها، فهي السند الأساسي الذي يقوم عليه الكون الدلالي، وهذا البعد الدلالي هو ما يؤطر النص الروائي.

كما يجب على أي دارس للسرد أن يفرق بين الشخصيات الروائية والشخصيات الإنسانية، لأن الروائي ينتقي من عالم الشخصية ما يكفي ذكره في الرواية للتعبير عن الفكرة فالشخصيات الروائية ليست موجودة واقعيا، وإنما هي مفهوم تخيلي تدل على التعبيرات المستخدمة في الرواية، ولأن الرواية عمل فني والمجتمع فيها متخيل يحاكي الواقع الخارجي دون أن يطابقه أو ينسخه، فقوانينها تختلف عن قوانين الحياة.

وهذا ما يجعل الشخصية الروائية ذات مفهوم تخيلي تخلق بواسطة الخيال الإبداعي للروائي لأن اللغة هي التي تجسد الشخصية المبدعة.

ومنه فالشخصيات الروائية ما هي إلا وحدة دلالية ذات دال ومدلول، مثلها مثل أي علامة لغوية أخرى تكون الشخصية بمثابة دال من حيث أنها تتخذ عدة أسماء ومواصفات تلخص هويتها، أما الشخصية كمدلول فهي مجموع ما يقال عنها بواسطة جمل متفرقة في النص أو بواسطة تصريحاتها وأقوالها وسلوكها، لأن العالم الذي تعيش فيه الشخصية الروائية، غير العالم الذي تعيش فيه الشخصية الواقعية، ومنه القول أن الشخصيات الروائية أدوات صماء تتحرك بوحي الكاتب وتحمل أفكاره، وما الروائي إلا رجل يطلق أشخاصه في العالم ويكلفهم أداء رسالة من الرسائل، لتكون الشخصية كائن من ورق فضاؤه اللغة، كما يجب استبعاد كل التصورات التي تجعل منها مرادفا لكائن حي.

ثانيا: أنواع الشخصية الروائية:

تعتبر مسألة تصنيف الشخصيات الروائية من بين أهم المسائل التي شغلت النقاد والمنظرين مدة طويلة، حيث نجد أول هذه التصنيفات الشكلية التي تركز على أهمية الدور المسند لكل شخصية في الحكي الذي أدى إلى استخلاص تصنيف يقوم على مقابلة الشخصيات الرئيسية بالثانوية وذلك تبعا لأهمية الدور

الذي تناط به الشخصية، يمكن أن تكون إما أساسية (الأبطال والممثلون) أو ثانوية مكيفة بوظيفة عرضية. ومنه فعملية البناء الروائي لكي تكتمل عليها أن تزاوج بين الشخصية الرئيسية والشخصيات الثانوية لأن استخلاص صفات وسلوكات الشخصية الرئيسية يتم عبر الشخصيات الثانوية والعكس، وتحدد هذه الشخصيات حسب أهمية الدور الذي يقوم به في الحكي.

فنجدوا الروائيين المغاربة قد عملوا في إبداعاتهم الروائية على توظيف الشخصيات المرجعية بصفة متفاوتة من كاتب لآخر، فكانت شخصيات مرجعية متنوعة منها التاريخية ذلك ما ورد في رواية الشمعة والدهاليز، ومن أهم تلك الشخصيات نذكر: الأمير عبد القادر وماسينيسا، والأمير خالد، والأمر ذاته تكرر في رواية الأسماء المتغيرة إذ ذُكِر شخصية تاريخية موريطانية وهي "حرمة ولد بابانا" زعيم ثورة التحرير الموريطانية ضد المستعمر الفرنسي، كما ذكرت في كل الروايات التي دارسناها شخصيات مرجعية ذات طابع ديني أو أسطوري أو اجتماعي...، وبالتالي اعتمد أغلب الروائيين المغاربة على الشخصيات المرجعية وأدخلوها نصوصهم لامتلائها الدلالي الذي كان دعماً لمسارات رواياتهم السردية، وبهذا ضمنوا أعمالهم شيئاً من مقومات أوطانهم التاريخية والثقافية والدينية والشعبية، وباستثمارهم لهذه التقنية السردية زادوا أعمالهم عمقا دلاليا وجمالاً فنيًّا وانتماء ثقافيًا وحضاريًا.

تضمنت الرواية المغاربية تقنيات مختلفة من نموذج لآخر في تقديم شخصيات العمل الأبداعي، فمنها ما كان فيها السارد هو العالم بكل خبايا الشخصيات والمقدم لها في مقطوعات وصفية مثلما حدث في رواية "الآفة" لعبد الله العروي، ومنها ما قدمت فيها الشخصيات نفسها بنفسها باعتبارها ساردة داخلة حكائياً، ومنها ما قُدّمت شخصياتها على لسان شخصيات أخرى من العمل الروائي، لكن الغالب هو أن أكثر الروايات مزجت بين هذه التقنيات الثلاث مثلما حدث في رواية "الشمعة والدهاليز" ورواية "التبر" ورواية "الأسماء المتغيرة"، وبالتالي فإن مدلول الشخصيات في الأعمال الروائية امتلأ بشكل تدريجي من خلال هذه الأقوال بمصادرها الثلاثة، إضافة إلى ما قامت به كل شخصية من وظيفة في المسار السردي، ومنه فإن البطاقة الدلالية للعديد من الشخصيات لم تكتمل إلاّ بعد نهاية الرواية، مما خلق نوعاً من التشويق والجاذبية لدى القارئ في إتمام قراءة العمل الإبداعي.

كما تميزت الرواية المغاربية بحضور المحاور الأربعة التي عددها فليب هامون لتحديد الشخصية (الجنس، الأصل الجغرافي، الإيديولوجيا، الثروة)، حيث نجد أن أغلب الروايات تضمنت هذه المحاور ولو بدرجات متفاوتة الحضور والتوزيع بين الشخصيات في العمل الروائي، فمثلاً نجد أن محور

"الجنس" حاضر في كل نماذج الشخصيات الروائية الخمسة التي درسناها، ثم في المرتبة الثانية محور "الأصل الجغرافي" الأكثر حضوراً وبعدهما محورا الإيديولوجيا والثروة بنسبة حضور متذبذبة حيث اضطررنا أحيانًا إلى استبدال أحد هذين المحورين بمحور آخر أكثر بروزاً وحضوراً، وبعد إخضاعنا أهم الشخصيات للدراسة التي تتجسد فيها هذه المحاور توصلنا إلى أنّ البنية العميقة لهذه النصوص الروائية تترجم لأفكار قيمة في قوالب شخصيات، فمثلاً في رواية التبر التي مثلت فيها شخصية "دودو " الشريرة المالكة لمحور الثروة استطاعت الوصول إلى مبتغاها رغم تنافيه مع العادات والتقاليد والعقيدة الدينية لمجتمع الرواية، أي أنّ المال في أيدي الأشرار لا يزيدهم إلّا قوّة في شرّهم وبطشهم مع الآخرين وينتج عن هذا فوضى يثيرها الطامعون في المال، في المقابل نجد الرواية نفسها شخصية الشيخ موسى" المتعلم والحكيم الذي لم يتألّم في حياته ولم ير الشقاء بفعل حكمته وعلمه وزهده في الدنيا، فالفكرة العميقة التي تترجم لها أحداث الرواية وشخصياتها أنّ الدنيا لا تشبع مهما ملك الانسان منها وأنه سيشقى لو أحبها سواءً في مخلوق أو في عتاد أو مادة مثل "التبر" وكل هذا في فضاء ثقافي وجغرافي يصور العرق التارقي الليبي في الصحراء، أما رواية "الآفة" فهي تترجم في بنيتها العميقة فكرة القدرة التي يكتسبها الإنسان بالعلم فيه تستطيع أن تتسيد البشر والدنيا وتجعلهم يعملون لصالحك من دون حضورك، وهو ما يتجسد في دور إحدى شخصياتها الرئيسة (رودني كوون).

تميزت البنى العاملية في الرواية المغاربية بكثرة الممثلين للأدوار العاملية أحيانًا وقلتهم أحيانًا أخرى، فمثلا في رواية "الآفة" لم نجد أي ممثل لعاملي ثنائية الصراع (المساند، المعارض) في كل الترسيمات العاملية التي تضمنتها دراستنا لهذه الرواية، عكس مع الروايات الأخرى مثل رواية "الطلياني" لشكري المبخوت ورواية "الشمعة والدهاليز" للطاهر وطار ورواية "الأسماء المتغيرة" التي اكتمل فيها حضور الممثلين لكل الأدوار العاملية الست ما زاد هذه الأخيرة جمالية وانفتاحًا أكثر لأفق التوقع لدى القارئ بخصوص قادم الأحداث فيها أثناء قراءته لها، إضافة إلى هذا فقد حدث مرات عديدة أثناء الدراسة أن مثلت شخصية واحدة دورين عامليين اثنين في الترسيمة العاملية الواحدة، وغالبا ما كان هذان الدوران هما (الذات المرسل إليه، كما أنّ الممثلين للأدوار العاملية لم يكونوا دائما نماذج من شخصيات بشرية أو كائنات حية، بل تعدى الأمر ذلك إلى نماذج ممثلين من طبيعة مادية محسوسة أو مجردة مثل الحب والوفاء وغيرهما، فهما ممثلين معنويين مجردين، مثل ماحدث في رواية "التبر" فالحب والوفاء كممثلين لعامل المرسل دفعا بالبطل إلى السعي من أجل تحقيق هدفه.

ظهرت أغلب الشخصيات الرئيسة في البدايات الأولى للرواية ثم أخذت تظهر الشخصيات الثانوية الواحدة تلو الأخرى وتغيب أخرى، إضافة إلى أنّ شخصية البطل كثيرا ما ميوها الروائيون بصفات خلافية بالنسبة لأقرانها في المجتمع الروائي، مثل الذكاء والفطنة والفتوة والقيم الأخلاقية العالية، فشخصية البطل كثيرا ما كانت معلنة وظاهرة منذ الصفحات الأولى للرواية ثم تأخذ بطاقتها الدلالية في الامتلاء شيئًا فشيئاً.

لقد تنوعت دوال الشخصيات في الرواية المغاربية من حيث الخلفية الثقافية الفكرية التي استقى منها الروائيون المغاربة أسماء شخصياتهم وأيضا حسب الأدوار السردية الموكلة إليهم والفضاء الزماني والمكاني الذي اختاروه لرواياتهم، فالعديد من الأسماء لشخصيات في الروايات تحيل على الخلفية الدينية الإسلامية لسكان دول المغرب العربي، وبعضها يحيل على العمق والتعدد الثقافي مثل اسم الشخصية التارقية البطلة في رواية "التبر"، والبعض الآخر يحيل على منطقة جغرافية معينة من الفضاء المغاربي مثل اسمي بوعلام والعارم (الجزائر) واسم بابانا (موريطانيا)، وغيرهما من الأسماء، فكان الروائي المغاربي موفقا في اختيار أسماء شخصياته التي استقاها من الواقع، فكانت كثيراً ما تطابقت دلالة الاسم ودور الشخصية وصفاتها وسماتها التي منحها إياها السارد. كما تميزت الرواية المغاربية في كل النماذج الخمسة التي درسناها بارتباطها المباشر بالواقع المغاربي في رقعة جغرافية من امتداده حيث كانت كل أحداث الروايات تجري في فضاء مكاني معين من المغرب العربي، إضافة إلى فضاء زماني واقعي أيضاً وكثيرا ما انقسم هذا الزمان بين فترتي الاستعمار الذي عاشته كل دول المغرب العربي وفترة الاستقلال بعده، ففي كل الروايات التي اعتمدناها في هذه الدراسة وجدنا معالجة لقضايا اجتماعية (الطلاق التعليمالعدالة الاجتاعية)، وثقافية (اللهجات، العادات والتقاليد، الفنون الشعبية)، وتاريخية (الثورة ضد المستعمر، بناء دولة ما بعد الاستقلال أنظمة الحكم)، كلها من واقع شعوب بلدان المغرب العربي في فترة الاستعمار وما بعدها.

المراجع المعتمدة:

1. محمد علي سلامة، الشخصية الثانوية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندريه، مصر، 2007م
2. محمد وتار، شخصية المثقف في الرواية العربية السردية، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق 1999م
3. حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان، ط3، 1990م
4. تزفيتان تودوروف، مفاهيم سردية، تر: عبد الرحمان مزيان، منشورات الاختلاف، الجزائر 2005م